



البُعد الاجتماعي للمعتقد الديني في فلسفة غوستاف لويون

م.م. ندى طلال أحمد

قسم الفلسفة/ كلية الآداب/ جامعة الموصل

<https://orcid.org/0009-0002-7005-8788>

nada.talal@uomosul.edu.iq

المستخلص:

شهدت الحقبة المعاصرة في الفكر الإنساني تعدد المباحث التي تعنى بالنظر في موضوع "الاعتقاد" وفي مختلف التخصصات، فظهرت اصطلاحات سيكولوجيا الاعتقاد وسيبولوجيا الاعتقاد وأخلاقيات الاعتقاد وغيرها من ميادين تضايقت مع موضوعة المعتقد بمعناه الديني أو المعرفي. نسعى في هذا البحث إلى القاء الضوء على تفسير مفهوم الاعتقاد عند غوستاف لويون بوصفه مظهرًا من مظاهر الحياة العاطفية منه يأتلف المنطق الديني، لكن هذا المنطق لا يمنح للعقل سلطانا بل لذاك العقل الجمعي المتكون من خلال جميع عناصر الحياة الاجتماعية لتتضح آثاره جلية في الآداب والفنون والسياسة والتاريخ وغيرها، ولتؤول نظرية تفسير نهضة المجتمعات إلى قوة الجماهير في قيادتها وجبروتها المستمدتان من الدين كظاهرة عاطفية اجتماعية. ولتؤكد لنا مرة أخرى أن المبادئ الدينية على الدوام أهم عنصر في حياة الأمم وحضاراتها المختلفة. وإذا كان لسبينوزا أن يقول إن حياتنا العقلية والمعرفية تابعتان لحياتنا العملية الأخلاقية، فإن لسان حال لويون يقول إن حياتنا العاطفية الدينية تابعة بشكل أساسي لحياتنا الاجتماعية (والسنن النفسية الجماعية) وليست نتاجًا لحياتنا العقلية أو المعرفية.

الكلمات المفتاحية: غوستاف لويون، الاعتقاد، المعتقد الديني، روح الاجتماع.



The social dimension of religious belief in the philosophy of Gustave Le Bon

Nada Talal Ahmed

Department of Philosophy / College of Arts / University of Mosul

<https://orcid.org/0009-0002-7005-8788>

nada.talal@uomosul.edu.iq

Summary:

The contemporary era in human thought has witnessed a proliferation of studies concerned with examining the subject of “belief” across various disciplines. This has led to the emergence of terms such as the psychology of belief, the sociology of belief, the ethics of belief, and other fields that have intersected with the concept of belief in its religious or epistemological sense. In this research, we seek to shed light on the interpretation of the concept of belief according to Gustave Le Bon, as a manifestation of emotional life from which religious logic is formed. However, this logic does not grant authority to reason but rather to the collective mind formed through all elements of social life, whose effects become evident in literature, arts, politics, history, and others. The theory of interpreting the renaissance of societies is attributed to the power of the masses in their leadership and might, derived from religion as a social emotional phenomenon. This reaffirms that religious principles are always the most important element in the life of nations and their various civilizations. If Spinoza said that our intellectual and cognitive life follows our practical ethical life, then Le Bon's stance is that our religious emotional life fundamentally follows our social life (and collective psychological laws) and is not a product of our intellectual or cognitive life.

Keywords: Gustave Le Bon, belief, religious belief, social spirit.



مقدمة البحث:

تكمن المشكلة البحثية في كيفية تحول المُعتقد من فكرة مجردة إلى قوة اجتماعية قادرة على صياغة القوانين والأخلاق، وتوجيه الجماهير بعيداً عن المنطق العقلاني الصرف، مما يجعله أداة للضبط الاجتماعي أو التغيير الجذري.

ينطلق البحث من تساؤلات جوهرية في المنظور الاجتماعي للمعتقد الديني عند غوستاف لوبون مثل، كيف تتشكل المعتقدات الدينية بمنطق العاطفة، لا العقل؟، وما هي حقيقة الوظيفة الاجتماعية للمعتقد الديني؟، وكيف تنتشر العقائد والأفكار داخل المجتمع عبر ما يسمى "بالعدوى النفسية" أو "الإيحاء"؟، وما طبيعة تأثيرات (العرق، والبيئة، والأخلاق، والاحتياجات النفسية) في تشكل العقائد؟، وما مكانة العقائد ما بين مفهومي اللاشعور والتفكير؟.

بمعنى أن التساؤلات الرئيسية في البحث فنتضمّن الاستفهام عن كيفية مساهمة المعتقدات الدينية- من وجهة نظر لوبون- في تشكيل الروابط الاجتماعية وتوجيه سلوك الجماعات. وعن ماهية مفهوم "المعتقد" ومدى اختلاف المنطق الديني عن المنطق العقلاني، فضلا عن طبيعة الخصائص السيكولوجية التي تجعل الدين قوة اجتماعية محرّكة للجماهير.

هذه الأسئلة، وغيرها، انبثقت من معطيات أساسية عند لوبون، من حيث وصف فلسفته كمحطة مركزية في فهم سيكولوجية الجماهير لتفسير كيفية تشكّل الوعي الجمعي، وكيف تعامل مع الدين لا كمجرد طقوس لاهوتية، بل كقوة اجتماعية محرّكة ومؤطرة للسلوك الإنساني، ذلك أن المعتقد الديني هو "الرابط" الرئيسي الذي يوحد لبنات المجتمع بعضها ببعض، وبدونه تفقد الشعوب قدرتها على البقاء ككتلة واحدة متماسكة. وأن "المُقدّس" يظلّ فاعلاً في توجيه المجتمعات حتى في العصور التي توصف بالعلمية أو العلمانية. وهذا ما سنحاول تقديمه عبر المحاور الآتية:

أولاً. فرضية البحث: فرضية البحث هنا نظرة غوستاف لوبون إلى المعتقد الديني كعامل اجتماعي أساسي يشكّل "روح الجماعة"، متجاوزاً قيمته اللاهوتية إلى أداتية وظيفية في توجيه سلوك الجمهور وضبط حركته من خلال العاطفة واللاوعي الجمعي.

بمعنى أن المعتقد الديني هو الرابط الأساسي الذي يجمع الأفراد المشتتين ويحولهم إلى "أمة" ذات روح واحدة. وأن الدين يمنح الناس عواطف مشتركة، ومصالح موحدة، واتجاهاً فكرياً واحداً، مما



يخلق تجانساً اجتماعياً يصعب تحقيقه بوسائل أخرى. وهذا ما يفسر نظرة لوبون للدين كمُشرّع غير مرئي يضع القواعد الأخلاقية التي يمتثل لها الناس طواعية، ليس خوفاً من القانون الوضعي، بل استجابةً للقوة الروحية. هذا الامتثال يوفر استقراراً اجتماعياً ويقلل من الفوضى، لأن المعتقد الديني يعمل كرقيب داخلي.

ثانياً. هدف البحث: يهدف البحث إلى تحليل رؤية لوبون للدور "الوظيفي" للدين، وكيف يساهم المعتقد في صهر الفروق الفردية داخل البوتقة الجماعية، مع التركيز على مفهوم "التدين الفطري" الذي يراه لوبون ملازماً للطبيعة البشرية. فضلا عن بيان دور المعتقدات الدينية في صياغة اللاشعور الجماعي وسلوك الجماهير، وتوضيح آلية عمل المعتقد كقوة مقدسة (عقدة) تفرض نفسها على المخيلة الإنسانية، وتفسير تأثير المعتقدات على الرموز والتقاليد في تثبيت المعتقدات أو لنقل تفسير آليات العدوى النفسية التي تجعل من المعتقد الديني وسيلة للسيطرة على الجماهير.

فلوبون لم ينظر إلى المعتقدات الدينية من منظور لاهوتي عقائدي، بل فككها كظاهرة اجتماعية ونفسية حيوية تُشكّل "عقلاً جماعياً". ويقاس على ذلك أن القيمة الاجتماعية للدين لا تعتمد على "عقلانية" الفكرة، بل على قدرتها في السيطرة على النفوس. فالمعتقدات التي تقنقر إلى المنطق قد تكون هي الأكثر نجاحاً اجتماعياً لأنها تخاطب اللاشعور الجماعي وتلبي احتياجات نفسية عميقة.

ثالثاً. منهجية البحث: يعتمد البحث على المنهج التحليلي المقارن، بعقد مقارنة بين المعتقدات الدينية التقليدية والمعتقدات السائدة السياسية أو الاجتماعية بصيغتها الوضعية أو "العلمية" التي عدها لوبون بأنها ديانات بديلة في العصر الحديث. لاستخراج الروابط الكامنة بين المعتقد المقدس والواقع الاجتماعي. في محاولة لفهم المحركات العميقة للاجتماع البشري

إذ يُعد المعتقد الديني في نظر غوستاف لوبون الركيزة الأساسية التي تمنح الشعوب هويتها واستقرارها، فهو "الروح" التي تحرك الحضارات وتوحد عواطف الجماهير نحو هدف مشترك. إذ ينظر إلى الدين بأنه ليس مجرد لاهوت أو طقوس، بل هو القوة المحركة الأقوى للمجتمعات. فالمعتقد الديني لا يمكن أن يكون محض "حقيقة ميتافيزيقية"، بل هو يصبح "ضرورة اجتماعية" تُشكّل روح الأمم. ذلك أن الدين محرك حضاري لا مجرد أداة انفعالية لتوحيد الجماهير.



من هذا المنطلق سينبثق مشروع لوبون في "سيكولوجية الجماهير"، الذي يوضح فيه أن الجماهير لا تتحرك بالعقل والمنطق، بل بالعاطفة الدينية. والحال نفسه في الحركات السياسية (كالاشتراكية مثلاً)، فهي قد تتخذ شكلاً دينياً في عيون الجماهير، حيث يتم تقديس الزعيم أو الفكرة، مما يمنح الجماعة قوة اندفاع هائلة للتضحية والبناء.

وبذلك يمكن تلخيص أبرز جوانب البعد الاجتماعي للمعتقد الديني عند لوبون في النقاط الآتية:

١. قوة محرّكة لا شعورية، ينبع المعتقد الديني عند لوبون من منطق اللاشعور، ويمنح الناس رهبة وقداسة تجعلهم يخضعون له طوعاً أو كرهاً. مما يجعله المحرك الأساس للجماهير، وليس العقل أو المنطق.
٢. بناء الحضارة وتماسكها: يُشكل المعتقد الديني الهوية الجوهرية للحضارات، كحضارة إسلامية، مسيحية الخ، ويطلع سمتها على الفنون والآداب والفلسفة.
٣. العدوى النفسية: ينتشر المعتقد الديني داخل المجتمع عبر "العدوى النفسية"، والإيحاء مما يجعله وسيلة فعالة للسيطرة وتوجيه الحشود.
٤. منطق العقل لا العاطفة: يرى لوبون أن المعتقدات الدينية لا تقوم على البرهان العقلي بل على العاطفة، وهي ضرورة نفسية تريح الإنسان من عناء التفكير.
٥. عامل استقرار وتحول: تمنح المعتقدات المجتمعات استقراراً، ولكن عندما تضعف يحل محلها معتقد آخر في عملية مستمرة.

رابعاً. الدراسات السابقة: حظيت أغلب مؤلفات لوبون بترجمات عربية متميزة، وعن دور نشر عديدة، كما نال لوبون حضوراً لافتاً في الدراسات العربية، من بينها بحث بعنوان (الدين عند غوستاف لوبون)، للباحث فاروق القرّة غولي والدكتورة هبة عادل، وبحث آخر عن (فلسفة غوستاف لوبون السياسية والتاريخية وأبعادها السيكلوجية) للباحث محند شريف، وبحث بعنوان (غوستاف لوبون وسيكولوجيا الجماهير) للباحث د. خالد عصام خليل، وبحث (دراسات الجمهور: من انطباعات "غوستاف لوبون" إلى خوارزميات منصات التواصل الاجتماعي) للباحث نصر الدين بوزيني، وغيرها من دراسات وأبحاث ركزت على جوانب مهمة في فلسفة غوستاف لوبون تنوعت موضوعاتها ما بين الدين والسيكولوجيا والاجتماع والحضارة والأخلاق والتاريخ والسياسة.



تم تقسيم البحث إلى ثلاثة مباحث، المبحث الأول بعنوان (سيكولوجية الاعتقاد عند غوستاف لوبون: من التكوين الفردي إلى اليقين الجماعي) والمكون من مقصدين، المقصد الأول بعنوان غوستاف لوبون بين الطب وعلم النفس الاجتماعي، المقصد الثاني بعنوان جدلية التحول من الاعتقاد العقلي إلى المُعتقد النفسي. وجاء المبحث الثاني بعنوان (سوسيولوجيا المعتقد الديني وتجلياته في روح التاريخ والسياسة)، ويتألف من مقصدين، الأول عن سيكولوجيا المعتقد الديني، والمقصد الثاني بعنوان الروح العقائدية للتاريخ والسياسة، أما المبحث الثالث والأخير فجاء بعنوان (سيكولوجيا الظاهرة الدينية: بين روح الجماعات والمنطق العاطفي "الخيالي")، ويتكون من مقصدين كذلك، المقصد الأول حمل عنوان الدين كمعتقد وضعي (روح الجماعات)، وجاء الثاني بعنوان المنطق الديني. وانتهى البحث إلى مجموعة من النتائج والاستنتاجات تضمنها الخاتمة.

المبحث الأول: سيكولوجية الاعتقاد عند غوستاف لوبون: من التكوين الفردي إلى اليقين الجماعي

المقصد الأول: غوستاف لوبون (بين الطب وعلم النفس الاجتماعي)

ولد غوستاف لوبون **Gustave Le Bon** ١٨٤١-١٩٣١ في بلدة لوجان -لي- رو ترو بفرنسا، بعد أن أكمل دراسته ما قبل الجامعية في مدينة تور، اتجه إلى دراسة تخصص الطب في مدينة باريس، ثم حصل على شهادة الدكتوراه عام ١٨٦٦، عُرفَ عن لوبون منذ بداياته الأولى بعقل نير في العلوم والمعرفة، ما غيّر وجهته إلى الاشتغال بالبحث العلمي، كما تميّز بشغفه بالرحلات والسفر، ما حدا به إلى القيام برحلات طويلة انتقل خلالها بين أرجاء الدول الأوروبية، فضلا عن مناطق في أفريقيا والشرق الأوسط، وقد شغف لوبون بدراسة الصدام الحضاري والآثار النفسية المترتبة عنها من خلال صدام الشعوب المستعمرة بالحضارة الغربية عنها. (لوبون، ٢٠٠٦، صفحة ب "ضمن التقديم").

فكان لوبون ذا روح موسوعية من حيث البحث والمعرفة، واشتهر بأنه مؤسس "علم نفسية الجماهير Crowd Psychology". وكتب في العديد من المجالات والفروع العلمية من علم الطب في البداية إلى علم الفيزياء النظرية إلى علم الانثروبولوجيا والآثار في الهند، فكان مساره طويلا متشعباً لينتهي به أخيراً إلى ساحة علم الاجتماع والنفس أو (علم النفس الاجتماعي). (لوبون،



١٩٩١، ص ١٤) ليصنف لوبون بذلك كأحد أبرز علماء الاجتماع والمستشرقين الفرنسيين. إذ لم يدافع عن حضارة العرب فحسب، بل عن حقوق المسلمين الذين عسفتهم بها الدول المستعمرة، منتقداً سياسة القهر والهضم وقد كتب كتابات شافية في انتقاد بلاده بما يعاملون به مسلمي الجزائر من الظلم والارهاق ونزع الأراضي وسلب الحريات. (لوبون، ١٩٩٠، ص ١٣)

عكف غوستاف لوبون على دراسة أسس المعتقدات التي تتألف من عناصر دينية وعاطفية وما يشوب أفرادها من تحولات حينما تصبح جمعية، هذا ما قدمه مثلاً في كتابه "حياة الحقائق" الذي تحدث فيه كذلك عن الأديان القديمة أو المركبة كالمسيحية وانتشارها وعن الأخلاق بوصفها العنصر الرئيس في تكوين المعتقدات الدينية، وفي الحياة العقلية بعدها تشكل جذور العلم من خلال التفكير الفلسفي. (الشهري، ٢٠١٩، ص ٤٤). "ولا تُشاهد تقلبات الأخلاق في الأمم المتباينة وحدها، بل تُشاهدُ، كذلك، في الأمم الواحدة بحسب أوجه تاريخها المختلفة، ولا مرأى في هذا التحول الذي يقع ببطء لتطور المشاعر بسرعة أقل من سرعة تطور العقل". (لوبون، ٢٠١٧، ص ٩١)

يرى سلامة موسى بأن ما كتبه لوبون عن الحضارات لم يكن بقلم مؤرخ، وإنما بقلم فيلسوف تاريخ، أي بقلم أحسن المؤرخين. ذلك أن التاريخ يجب أن يكتب في استعراض وتحيز، أي أن الكاتب يجب أن يكون له من سرد الحوادث مغزى اجتماعي وهدف فلسفي، وهذا هو ما فعله غوستاف لوبون. (لوبون، ١٩٤٧، ص ٥). من هنا لا يمكن القول إن لوبون كان مؤرخاً قبل أن يكون فيلسوفاً، أو إنه صار فيلسوفاً لأنه كان مؤرخاً.

كذلك من الجدير ذكره، أن للوبون رؤية نقدية لجميع أشكال الهندسة الاجتماعية، حتى أنه رفض فكرة أن الطبيعة البشرية يمكن تعديلها من خلال العمل على البيئة الاجتماعية، من مؤلفاته (الشهري، ٢٠١٩، ص ٣٧):

- ١- حضارة العرب ١٨٨٤
- ٢- سيكولوجيا الاشتراكية ١٨٩٦
- ٣- حضارة بابل واشور ١٨٨٦
- ٤- حضارة الهند ١٨٨٧
- ٥- الحضارات الأولى ١٨٨٩
- ٦- السنن النفسية لتطور الشعوب ١٨٩٤



٧- سيكولوجيا الجماهير ١٨٩٥

٨- روح السياسة ١٩١٠

٩- الآراء والمعتقدات ١٩١١

١٠- روح الثورات والثورة الفرنسية ١٩١٢

١١- حياة الحقائق ١٩١٤

١٢- روح التربية ١٩١٧

١٣- فلسفة التاريخ ١٩٣١

المقصد الثاني: جدلية التحول من الاعتقاد العقلي إلى المُعتقد النفسي

الأصل الاشتقاقي لكلمة **اعتقد** هو عقد " فعل ثلاثي مزيد بحرفين: الهمزة والتاء، على وزن افتعل "له أوجه استعمالات مختلفة وهي ترمي في الظاهر إلى معنى يكاد يكون واحداً، يتمثل في: الإيمان والتصديق في أمر ما، والعقيدة هو ما عقد وصدق عليه المرء بضميره وعقله فلا يحتمل فيه الشك أو الكذب أو التراجع أو التنازل عنه، فالمعتقد انجاز الفكر. وأصل العَقْدِ نقيض الحل، عَقَدَه، يَعْقِدُه، عَقَدَا وتعاقدَا، وعَقْدُه عقد لسانه يَعْقُدُ عقداً، وفي لسانه عقدة وعقد أي التواء، ويقال عَقَدْتُ الحبلَ فهو معقود. (الزبيدي، ١٩٩٤، ص ٢٩٤). واعتقد، اعتقاداً، عقد: الأمر، صدَّقَه، عقد عليه قلبه وضميره: تدبّر به (معلوف، ١٩٨٤، ق ٥٢، ص ٤١٠-٤١١).

لذا يشير محمد الشيخ في بحثه الموسوم "فلسفة الاعتقاد" إلى أن مفهوم «الاعتقاد» أحد المفاهيم الأقل اصطلاحية في تاريخ الفلسفة، يكفي أن نفحص المعاجم الفلسفية الكلاسيكية لكي نفاجأ بأن لا أثر له بين اصطلاحات الفلسفة الأساسية، وحتى حين يحظر المفهوم فإنه يبقى مفهوماً تابعياً "Derivative concept" ينبغي جلبه إلى المركز، فيكاد أن يكون من الأسماء الاضداد: اعتقد بمعنى أشك، وأخمن، أحسب، يُحَيَّلُ إلي، ويتهيأ لي، واعتقد بمعنى أنا مُقْتَنِع، أنا متيقن، أنا متأكد. (الشيخ، ٢٠١٧، ص ٦٠).

أما لوبيون فيعرف المعتقد بأنه "إيمان ناشئ عن مصدر لا شعوري يُكره الانسان على تصديق فكر أو رأي أو تأويل أو مذهب جزافاً ... ويجب أن نصف بالمعتقد كل ما هو من عمل الإيمان، ومتى استعان المرء في تحقيق صحة المعتقد بالتأمل والتجربة لا يظل المعتقد معتقداً بل يصبح معرفة. فالمعتقد والمعرفة أمران نفسيان يختلفان من حيث المصدر اختلافاً تاماً، إذ المُعتقد كناية عن



إلهام شعوري ناشئ عن علل بعيدة من إرادتنا، والمعرفة عبارة عن اقتباس شعوري عقلي قائم على الاختبار والتأمل". (لوبون، الآراء، ٢٠١٢، ص ١٧). وهذا يعني في قراءة لوبون أن الغريب عن تكوين المعتقد هو (العقل)، وبكلمة أخرى السلطة هنا للعاطفة لا "العقل".

بمعنى أن الاعتقاد بمفهومه المختلف عن المعرفة^(١) عند لوبون يرتبط بالروح الدينية، فهي عنصر جوهري من عناصر الأديان وهي على حد تعبير لوبون "ذات شأن عظيم في تكوين المعتقدات الدينية ... وهي ركن مختلف الأديان". (لوبون، الحقائق، ٢٠٢٠، ص ٢٥). من هنا يربط لوبون ما بين التاريخ ونشأة المعتقد اجتماعياً، فالزمان هو حاضن لآراء الجماعات، كما أنه الحاضن لمعتقداتها، والأمر ذاته يطبق على الأفكار، ذلك أن الزمان نواة أو تربة خصبة لنمو الآراء كما انه كذلك في نشأة العصور بتعاقبها. (لوبون، ٢٠١٣، ص ٦٢). ينتج عن ذلك بأن مفهوم الزمان كفيل بتفسير مجمل التحولات والتبدلات. (لوبون، ٢٠١٣، ص ٦٣). أي أن الزمن هو العامل الحاسم والمحرك الأساسي الذي يشكل وعي الشعوب، ويغير المعتقدات، ويبني الحضارات أو يهدمها.

من هنا، يمكن القول بأن العقل لا يملك قدرة في اختراق حجاب المعتقد "وكلما تقدم الإنسان في سلم الحضارة تتحد روح التدين العامة عند الهمج بالتدرج وتتنحصر في بضعة مواضيع يؤمن بها الرجل المتمدن إيمان الرجل الفطري، أي إيماناً لا تزعمه الأدلة والبراهين العلمية". (لوبون، الآراء، ٢٠١٢، ص ٧٥-٧٦). أي أن جوهر "التدين" كعاطفة إنسانية لا يختفي بالتقدم الحضاري، بل يتغير شكلاً ونطاقاً.

وعلى الرغم من علم الناس أن المعتقدات صادرة عن أنفسنا لا عن قوة إلهية عظمى خفية، إلا أنها "لا تزال ذات سلطان علينا، وما تأثير قوة البرهان فيها إلا كتأثيرها في الجوع والعطش، فلما نضج المعتقد في منطقة اللاشعور حيث لا يصل إليها العقل عاناه المرء غير محاج فيه". (لوبون، الآراء، ٢٠١٢، ص ١٨)

المبحث الثاني: سوسيولوجيا المعتقد الديني وتجلياته في روح التاريخ والسياسة

المقصد الأول: سوسيولوجيا المعتقد الديني

^١ المعرفة بتعبير لوبون هي عنصر الحضارة الأساسي وهي العامل الكبير في ارتقائها المادي، أما المعتقد فهو الذي يرسم وجهة الأفكار ومن ثم جهة السير. (لوبون، الآراء، ٢٠١٢، ص ١٨)



في كتابه (سيكولوجيا الجماهير) يتساءل لوبون عن الأفكار الأساسية التي ستنهض بها المجتمعات المقبلة التي ستخلف مجتمعنا؟ ليجيب عن ذلك، بأن (قوة الجماهير) هي الكفيلة بذلك "فعلى أنقاض أفكار كثيرة كانت معتبرة صحيحة سابقاً وميتة اليوم وعلى أنقاض تلك السلطات العديدة التي سحقتها الثورات نجد أن هذه القوة الجديدة وحدها التي نهضت وترسخت" (لوبون، ١٩٩١، ص ٢٤). ما يعني أن التغيير صفة حتمية للزمان على الصعيدين الفكري والاجتماعي، حتى أن أحداث التاريخ الكبرى والحياة أو المظاهر السياسية برمتها محكومتان بذلك. ليكون السؤال في واقعه متمركزاً حول كيفية تحوّل الدين من إطار إيماني فردي إلى ظاهرة اجتماعية تحرك المجتمعات.

لكن، ما يخشاه لوبون أن تميل مطالب الجماهير إلى تدمير المجتمع في عصره، من خلال العودة به إلى تلك الشيوعية البدائية التي كانت تمثل الحالة الطبيعية لكل الجماعات البشرية قبل فجر الحضارة. (لوبون، ١٩٩١، ص ٤٥). والحل هنا هو البحث عن جامع مانع لمثل هكذا انهيار أو انحلال. هنا يرى لوبون أن تميز المعتقدات الدينية بصفة الجمعية وتوقف نجاح الرُّسل على اعتناق الناس لتعاليمهم اعتناقاً عاماً، يضيفي إلى أن هذه المعتقدات لا تنتشر إلا إذا لاعمت رغائب الزمن واحتياجاته. (لوبون، الحقائق، ٢٠٢٠، ص ٣٠)

ويرى لوبون إن شأن العقل في الثورات يكاد لا يذكر إلا بشكل ضئيل، والأمر لديه يتمثل في الثورات السياسية والثورات الدينية على حد سواء، مثاله في ذلك الثورة الفرنسية وثورة الإصلاح الديني، فالتعسف أو الاضطهاد لن يجدي نفعاً، والتسامح بين المعتقدات المتباينة أمر مستحيل، وإذا كانت أشد المظالم صادرة عن المواجهة ما بين العقائد، فإن تبديل عقيدة الناس محال برأيه ما لم يكون تبديل حياتهم أولاً. (لوبون، الثورات، ٢٠١٢، ص ٣١)

لذا كانت (المبادئ الدينية) العنصر الأهم في حياة الأمم وتاريخها، فالحوادث التاريخية إذا كانت قد أنتجت أعظم الآثار فذلك لأن المسائل الدينية تأتي في مقدمة هذه الآثار أو لنقل أبرزها "ولا ينبغي لنا أن ننسى جميع النظم السياسية والتدابير الاجتماعية قامت منذ بداية التاريخ على معتقدات دينية" (لوبون، ٢٠٠٦، ص ١٥٥-١٥٦) من هنا كانت عبارة أن الجماعات لا بد لها من دين صائبة، "ما دامت جميع المعتقدات السياسية أو الإلهية أو الاجتماعية لا تطمئن عندها إلا إذا لبست ثوب الدين الذي يحميها من الجدل ويجعلها فوق بحث الباحثين". (لوبون، ٢٠١٣، ص ٥٥).

يستدرك لوبون في إمكانية أن تكون للديانات قدرة دائمية على تغيير روح الأمم طالما أن المعتقدات لا تبقى على قوتها الأولى زمنياً يكفي لتغيير الخلق تغييراً تاماً (لوبون، ٢٠٠٦، ص



١٦٠). لكن ذلك لا يمنع برأيه أن "تظهر معتقدات الجماعات بالخضوع الأعمى والتعصب الوحشي والاكراه في الدعوة وكلها صفات من لوازم الشعور الديني، وما البطل الذي تُهَلَّل الجماعات له إلا إله في نظرها. هكذا كان نابليون مدى خمسة عشر عامًا ... إن جميع موجدي الديانات ومؤسسي المذاهب السياسية لم يقيموها إلا لأنهم تمكنوا من إحداث التعصب الذي يجعل الإنسان يرى سعادته في العبادة والطاعة، وبهيئته لأن يهب حياته لمعبوده" (لوبون، ٢٠١٣، ٥٤).

من هنا يشبه لوبون (الحياة الاجتماعية) بالشعائر أو التقاليد أو الطقوس، ليضمها كركيزة أساسية إلى جانب كل من الإيمان والرموز والتي تستند إليها أركان جميع الأديان. وإذا كانت الأديان تتطور ككل عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية، "غير أن الشعائر والطقوس تمنحها بعض الثبات لزم معين على الأقل، حتى أن الأديان لا تتصف بشيء من الديمومة إلا بعد أن تستقر بها رموز وشعائر. ولا غنى لأي دين عن الشعائر والرموز، فبفصلها يدخل المعتقد الجديد دائرة اللاشعور" (لوبون، الحقائق، ٢٠٢٠، ص ٣٠)

إن الجماعات بنظر لوبون من أشد المكونات حفاظاً على الأفكار، ذلك أن الروح القومية، والحضارة برمتها منبثقتان عن تقاليدهما، وليس أدل على ذلك إلا استعصاء تبديلها "إن أهم الناس وُجدوا أن يكون لهم شنشنة تقاليد^(٢)، فإذا زال نفعها اجتهدوا في هدمها. والحاصل انه لا مدنية إلا بالتقاليد ثم الرقي موقوف على هدمها والصعوبة في إيجاد التوازن بين التقلب والبقاء". (لوبون، ٢٠١٣، ٦١).

الحقيقة أن تأثير المعتقدات لا يقتصر على البيئة الاجتماعية في نظر لوبون بل أن تأثيرها شديد في الحياة السياسية، والسبب في ذلك يعود برأيه إلى أن الدين عامل توحيد مصالح الأمة وعواطفها وأفكارها، ليحل المبدأ الديني بذلك محل غيره من العوامل أو العناصر التي لها الدور في أن تتشكل منها روح الأمة. (لوبون، ٢٠٠٦، ص ١٥٩) الدليل على هذا النمط من التأثير، ما يذكره لوبون عن مدى تأثير القرآن الكريم والإسلام^(٣) في الناس، وما يصبه في النفوس إيماناً ثابتاً لا ترزعه

^٢ شنشنة تقاليد بمعنى الأعراف (التقاليد) المتوارثة.

^٣ يصف لوبون الإسلام بأكثر الديانات ملائمة لاكتشاف العلم ومن أعظمها تهذيباً للنفوس، حملاً على العدل والاحسان والتسامح، "وإن فاقت جميع الأديان السامية فلسفة، تراها مضطرة إلى التحول لتستمرتها الجموع، وهي لا شك دون الإسلام في شكلها المعدل". (لوبون، ١٩٩٠، ص ٤ ض التقديم)



الشبهات، وعن دور الرسول محمد (ص) في توحيد أمة الإسلام ونشر السلام وامتداد دولة العرب وراية الإسلام من الهند إلى اسبانيا (لوبون، ١٩٩٠، ص ٤)
لذا، فإن الإيمان عندما ينتصر -دينياً كان أم سياسياً- لا يمكن للعقل أن يؤثر فيه. (لوبون، الثورات، ٢٠١٢، ص ٣٧) وسيكون من الضرورة حينذاك التأكيد على أنه "لا بد من الجماعات من دين ما دامت جميع المعتقدات السياسية أو الإلهية أو الاجتماعية لا تطمئن عندها لا إذا لبست ثوب الدين الذي يحميها من الجدل ويجعلها فوق بحث الباحثين، بل لو أمكن إدخال عدم الاعتقاد في الجماعات لاشتدّ تعصّبهم فيه كأنه معتقد ديني، ولصار في الخارج ديناً يتعبد به الناس". (لوبون، ٢٠١٣، ص ٥٥).

المقصد الثاني: الروح العقائدية للتاريخ والسياسة

من مبدأ التساؤل عن إمكانية أن نثبت للتاريخ ما للمعتقد القومي من القوة التي لا تقاوم، وأن يكون للإيمان الديني القدرة على تنوير القلوب، ينطلق لوبون في كتابه "روح الثورات والثورة الفرنسية" نحو الاستدلال ما للروح العقائدية من أثر في الأحداث السياسية الكبرى ومظاهر التاريخ البارزة. (لوبون، الثورات، ٢٠١٢، ص ٢٠)

يرى لوبون إنه إذا كان العقل غير مؤثر في المعتقدات الشعبية، إلا أنه يؤثر في أناسٍ بلغوا من الثقافة معه ما يستطيعون معه أن يحلّوا إيمانهم، دليل ذلك برأيه يكمن "بتقبّل كثير من أفاضل العلماء قصصاً دينية على أنها من الحقائق لا يُجادل فيها، مع أنه لا يستطيع عقلٌ أن يدافع عنها". (لوبون، التاريخ، ٢٠٢٠، ص ١٣٤). إن ما يفسر الأثر الكبير للمعتقدات هو ما يسميه لوبون بالشعور الديني، الذي يحمل مميزات بسيطة "كعبادة ذاتٍ يتوهم أنها فوق الذوات والخوف من القوة الخفية التي تظن لها، والخضوع الأعمى لأوامرها واستحالة البحث في تعاليمها والرغبة في نشرها والنزوع إلى معاداة من لا يقول بها، ومتى تكيف الشعور بهذه الصفة فهو من طبيعة الشعور الديني" (لوبون، ٢٠١٣، ص ٥٣). والنتيجة أن اعتقاد الجماعات -الدينية أو السياسية- تنصبغ بصبغة مخصوصة لا يسعنا التعبير عنها إلا أن نسميها "بالشعور الديني".



فإذا لم تستحوذ المعتقدات على النفس في بعض الأحيان، ولم تسيطر عليها سيطرة تامة، إلا المعتقد يأتي في المرتبة الأولى من عوامل انحلال الأمم النفسية. وتدلل التجربة على أن المعتقدات تهون^(٤) مع الزمن، ولكن يجب، لكي تخسر سلطانها على النفوس أن يظهر إيمان جديد ليقوم مقامها. (لوبون، التاريخ، ٢٠٢٠، ص ١٣٥).

من هنا كان من أشد الأخطاء الأساسية خطراً وشرّاً برأي لوبون هو جهل العلماء بالمبادئ الأساسية النفسية التي يقوم عليها التعليم والتربية، ذلك أن الذاكرة وحدها لا يمكن أن تكون طريقاً تسلكه المعلومات إلى عقولنا لتستقر فيها "فأساس التعليم يجب أن يكون استظهار الكتب والدروس". (لوبون، التربية، ٢٠١٤، ص ٢٨)

وعليه، "لا يدرك الباحث أهم الحوادث التاريخية تمام الإدراك إلا إذا وقف على الصبغة الدينية التي ينتهي إليها الجماعات البشرية"، هنا يقرر لوبون إن الحوادث الاجتماعية اليوم ميدان بحث طبيعي أكثر من عدّه ميداناً لطريقة علماء النفس فيما سبق. (لوبون، ٢٠١٣، ص ٥٥). فلكل أمة نصيب من المشاعر والتقاليد والمعتقدات المتوارثة، والتي منها يتكون روح نسميها بالجماعات البشرية "من هنا وجدت فكرة الوطن بالمعنى المفهوم لنا في هذا العصر لأنها لا تصير واضحة إلا إذا تم تكوين الروح، ولهذا لم تترق فكرة الوطن عند الاغريق إلى أبعد من فكرة المدنية". (لوبون، ٢٠٠٦، ص ١٨).

نستخلص من ذلك برأي لوبون أن أثر الدين لا يقتصر على التاريخ أو السياسة فحسب، بل أن له الأثر البالغ في أخلاق الأمة، مثال ذلك لديه كيف كان لفرنسا أن تقاوم لوحدها -بالمبدأ الديني- أوربا بأكملها، "فعرف البشر مرة أخرى درجة تأثير المعتقدات الدينية، لأن الأفكار التي امتلكت العقول في ذلك العصر كانت في الحقيقة ديناً جديداً نفخ في الأمة من روحه فأنعشها". (لوبون، ٢٠٠٦، ص ١٥٩-١٦٠)

^٤ يرى لوبون إلى أن ظاهرة وهن الإيمان الديني تصلح في إدراك السبب لعدم فائدة معارضة المعتقدات السياسية - التي بلغت من الشدة ما تُولف معه ديناً- بالمعتقدات القديمة، فالمعتقدات الماضية لا يعود شبابها إليها. (لوبون، التاريخ، ٢٠٢٠، ص ١٣٤).



لذلك فإن الدين عندما يظهر يبدأ في توجيه سلوك الأفراد، ليترك بصماته في الحضارة، ثم يموت شأنه شأن الظواهر الطبيعية، وإن كان موتاً رمزياً، بحيث يمكن القول إن الدين هنا يغير اسمه، أو على حد تعبير لوبون "المعتقدات تشبه الحركة التي تدرس في كتب الفيزياء تتحول أحياناً، ولكن من غير أن تموت، أي أن المعتقدات تغير اسمها، وهذا التغير هو ما نسميه موتاً". (لوبون، الآراء، ٢٠١٢، ص ٢٤٠)

إن المعتقدات الدينية الجديدة لا تولد حالة من الانسجام فحسب، بل إن لها القدرة على تغيير عواطف الأمة بما يتعدى على مفكر (فيلسوف) أو نظام (قانون) أن يحدث مثله. (لوبون، الثورات، ٢٠١٢، ص ٣٧) ومن ثم فإن، من أكثر المبادئ تأثيراً في الحضارة (المبادئ الدينية)، لأن أعظم الحوادث التي مرت عبر التاريخ كان منشؤه الاعتقاد الديني. (الشوا، ٢٠١٤، ص ٩) فضلا عن كون مصدر المعتقدات اللاشعوري وغير الإرادي بنظر لوبون يمنحها قوة عظيمة، والمعتقدات الدينية "لا تلبث بعد أن تصبح قطوباً جاذبة تجذب حولها كيان الشعوب وتطبع سمتها على كل عنصر من عناصر حضارتها فتوصف الحضارة حينئذٍ باسم الدين ... ومتى صار المعتقد قطب جذب أصبح قطب تغيير أيضاً، لأن عناصر الحياة الاجتماعية المختلفة من فلسفة وفنون وآداب تتبدل لتلتئم به". (لوبون، الآراء، ٢٠١٢، ص ١٨)

يقول لوبون: "ليس في الثورات الدينية تجربة تثبت للمؤمنين ضلالهم ... وأما الثورات السياسية فإن تجربتها لم تلبث أن تثبت ما في المذاهب السياسية من الخط والضلال فيضطر الناس إلى تركها". (لوبون، الثورات، ٢٠١٢، ص ٣١) وهو يضيف إلى ذلك إنه لا يمكن القول بأن الثورات الدينية كلها سلبية، كما كانت الثورة في الإصلاح الديني، "بل كان تأثير الكثير منها في تقويم الناس وتهذيب نفوسهم عظيماً جداً، فهي بمنحها الشعب وحدة أدبية تزيد قوته المادية كثيراً" ويستشهد هنا بالرسول الكريم محمد (ص) كيف أنه قد شوهد ذلك عندما كان لرسول الاسلام -بما جاء به من الإيمان- أن يحول قبائل العرب إلى أمة قديرة. (لوبون، الثورات، ٢٠١٢، ص ٣٧)

المبحث الثالث. سيكولوجيا الظاهرة الدينية: بين روح الجماعات والمنطق العاطفي (الخيالي)
المقصد الأول: الدين كمعتقد وضعي (روح الجماعات)

يتحدث غوستاف لوبون عن الدين كمعتقد وضعي (عاطفي/جمعي) وجزء من المعتقدات الراسخة للجماهير بشكل أساسي في أكثر من كتاب، ففي (حياة الحفائق) يبحث في أسس المعتقدات الدينية



والعاطفية وتحولاته، كما يتناول دور المعتقدات الدينية في تشكيل عقلية الجماهير في كتابه (الآراء والمعتقدات). ولعل من أشهر مؤلفات لوبون في مجال علم النفس الاجتماعي كتابه (سيكولوجيا الجماهير ١٨٩٦)، الذي قدم فيه تعريفاً لمفهوم "الجماهير السيكولوجية Psychological crowds" حيث تتشكل روح الجماعة ذات سمات محددة في ظروف معينة بفعل العدد والعدوى الذهنية والإيحاء. (لوبون، ٢٠٠٦، ضمن التقديم، صفحة ج).

فما سعى إليه لوبون إنما هو إثبات أن المعتقدات الدينية ليست عقلية، بل هي "معتقدات وضعية" ناتجة عن عناصر عاطفية، وجماعية، وتاريخية تشكل وجدان الأمة. وإن الأفكار التي تتحول إلى معتقدات جماعية (وبضمنها الدين) تسيطر على سلوك الجماهير. كل ذلك انطلاقاً من مبدأ لوبون "أن الحقائق البشرية تتطور كجميع الحوادث الطبيعية، فتُولد وتنمو وتزول" (لوبون، ٢٠١٧، ١٧).

فبمجرد انضمام الفرد إلى مجموعات الجماهير فإنه يخسر جزءاً من تعقله ومدنيته ويتحول إلى كائن غريزي، والسبب أن الجمهور يمتاز بعاطفيته الشديدة. (الشوا، ٢٠١٤، ص ٩). وما أراه لوبون في كتابه سيكولوجيا الجماهير إنما هو بالتحديد اكتشاف طريقة لمعرفة كيفية السيطرة على الجماهير والتحكم بها. (لوبون، ١٩٩١، ص ١٣) ذلك أن (نفسية الجماهير) وقد تبين لنا إلى أي مدى يكون تأثير القوانين والمؤسسات ضعيفاً على طبيعتها الغرائزية العنيفة، كما وتبين لنا إلى أي مدى تبدو عاجزة عن تشكيل أي رأي شخصي ما عدا الآراء التي لفتت لها أو أوحيت إليها من قبل الآخرين. (وبون: ١٩٩١، ص ٤٨)

وإذا ما تساءلنا، عن ماهية الأسس التي تحرك روح الجماعات أو لنقل الروح عند الجمهور؟ لوجدنا بأن المعتقد الديني عند لوبون هو من أهم الأسس التي تحرك هذه الروح، إلى جانب كونه من أهم عناصر الحياة للمجتمع، ذلك أن المعتقد في الأصل هو ناشئ عن مصدر لا شعوري يُكره الإنسان على الإيمان والتصديق لفكر ورأي أو تأويل، وهو بذلك يعتقد ان الدين هو أداة استغلال ينتصر بها السلاطين على الجمهور، فالمعتقد ينضج في منطقة اللاشعور حتى لا يصل إليها العقل. (خليل، ٢٠٢٤، ص ٦٩٤)

عندما يتحدث لوبون عن العوامل التي تولد الآراء والمعتقدات في الجماعات، يقسمها إلى قسمين، عوامل بعيدة، وقريبة "أما البعيدة فهي التي تهيب الجماعات لقبول بعض المعتقدات دون بعض، أي انها التربة التي تنبت فيها أفكار جديدة ذات قوة وأثر مدهشين، وظهور تلك الأفكار يكون



فجأة ... إلا أن الواقع انها نتيجة عمل سابق طويل ينبغي البحث عنه. وأما العوامل القريبة فهي التي تأتي بعد هذا العمل الطويل ولا أثر بدونه ووظيفتها تكوين الاعتقاد الداعي إلى الفعل، أي تقوم الفكر وتقذف به إلى الخارج". (لوبون، ٢٠١٣، ص ٥٩)

ما تقدم يظهر بشكل جلي ما للثورات الدينية من الشأن الأعظم وما للمعتقدات من السلطان الأكبر فهي "التي تقي الأمم من أن تكون أشخاصًا ضعفاء لا تربطهم رابطة، وقد احتاج الإنسان إليها في كل عصر ليوجه أفكاره نحو مطلب، وما استطاعت أية فلسفة أن تقوم مقامها". (لوبون، الثورات، ٢٠١٢، ص ٣٨)

ولا ينبغي لنا أن ننسى -برأي لوبون- بأن جميع الأنظمة السياسية والتدابير الاجتماعية قامت بداية التاريخ على معتقدات دينية وان الالهة هي التي لعبت الدور الأكبر في الحياة الإنسانية وان الدين هو المؤثر الأكثر ظهورًا في الأخلاق. (لوبون، ٢٠٠٦، ص ١٥٦). إن إيجاد المعتقد في النفوس لا يختلف بين ميادين الدين أو السياسة وحتى الأخلاق. (لوبون، ٢٠١٣، ص ٨٤)

كذلك، فإن التأثير الحقيقي في روح الجماعات لا يكون عن طريق الأنظمة، وإذا نظرنا مليًا إلى دولة ترفل بالرخاء والسعادة بفضل أنظمتها الديمقراطية، وقارناها بدولة أخرى متمتعة بنظام مثله نتعثر في أذيال النقهق والفوضى، لحكمنا حينئذٍ بأنه لا دخل لتلك الأنظمة لا في سعادة الأولى ولا في شقاء الثانية، وبات الذي يحكم الأمم هو أخلاقها. (لوبون، ٢٠١٣، ص ٦٥) فالأمم اليوم تكاد لا تهتم بما ينشأ من مبدأ المساواة -بين الرجل والمرأة- مثلا من انقلابات سياسية واجتماعية، ولا بالتى ستحدثه بالمستقبل مما هو أشد تأثيرًا وأعظم ضررًا "وليس رجال السياسة بأكثر اهتماما من أممهم بهذه الحوادث لقصر حياتهم في مراكزهم في هذا الزمان ولأن السيطرة أصبحت للرأي العام فهو القاهر فوق الحكومات، ولا مندوحة لأحد عن اتباعه". (لوبون، ٢٠٠٦، ص ٥)

المقصد الثاني: المنطق الديني

ما بين أنواع ثلاثة من الحياة (العضوية، والعاطفية، والعقلية)، يبدو الاحتياج إلى الاعتقاد بنظر لوبون مظهرًا من مظاهر العاطفية، ويبدو المعتقد ذاته مهميًا على طبيعتنا العاطفية، ذلك أن المعتقد لا يكون إراديًا عقليًا، ولا يقدر العقل على تكوينه وتسييره. فإذا كان المعتقد بذلك غذاءً نفسيًا



ضروريًا لحياة الروح كضرورة الغذاء المادي لحفظ الجسم، فهل سيكون بالإمكان أن تكون الأشياء التي تؤمن بها قائمة على الدليل والبرهان؟

الأمر هنا يبدو جدليًا نوعًا ما، ففكرة المعتقد راجعة إلى ما يولده المعتقد ذاته في نفوسنا من آمال، وما ينشئه من صور ذهنية تقتضي مبدأ السعادة، فالدين مبدأ التزام لا استدلال، وإذا ما أراد الناس البحث فيه فذلك لأنه أصيب بالضعف أو أنه قد مال إلى الزوال. (لوبون، ٢٠١٤، ص ٣١) بدايةً يميز لوبون بين المنطق الديني والمنطق العقلي بأن (الأول) نتيجة لما في الإنسان من روح دينية، وهذه الروح التي كانت عامة بين الناس في القرون الغابرة لا تزال منتشرة على ما يظهر، ولا أهمية لارتباط الأشياء والحوادث بعضها ببعض عند أولي النفوس الدينية، فالارتباط المذكور في نظر هؤلاء إن هو إلا أمر يختص بموجودات علوية نعاني عزاءهما فقط، ولا يختلف المنطق الديني عن المنطق العاطفي بكونه شعوريًا اختياريًا فقط، بل بتسببه أعمالًا تناقض أعمال المنطق العاطفي مناقضة تامة. بينما (الثاني) أي المنطق العقلي: فهو فن التأليف بين الأفكار والتميز بين ما تشابه وما اختلف منها، وعنه وحده على وجه التقريب بحث علماء النفس منذ (أرسطوطاليس). (لوبون، الآراء، ٢٠١٢ ص ٦٢)

فالمنطق العقلي يدير دائرة الشعور، وأما **المنطق العاطفي** فإنه مستولٍ على دائرة اللاشعور، وبما أن سلسلة المنطق العاطفي لا شعورية، فإننا لا ندرك تطور مشاعرنا إلا قليلًا، فنحن نقود حياتنا العقلية، ولكن لا سلطان لنا على حياتنا العاطفية. (لوبون، الآراء، ٢٠١٢ ص ٧٢) كذلك، فإن المنطق الديني يختلف عن كلا النمطين، أي المنطقين العقلي والشعوري يقول لوبون "أن المنطق العقلي هو منطق شعوري يعلم الإنسان التعقل والتفكير والبرهنة والاختراع، والمنطق العاطفي هو منطق لا شعوري يصدر عنه سيرنا ولا تأثير للعقل والذكاء في حلقاته في الغالب، وأما المنطق الديني فطبقة أعلى من طبقة المنطق العاطفي، فالحيوانات لا تعرف المنطق الديني مع انها ذات مشاعر كثيرة" (لوبون، الآراء، ٢٠١٢ ص ٧٥)

إن وصف روح التدين في نظر لوبون يتمثل في كونه تمثلاً لقوى عليا تتمثل على شكل أصنام وأنصاب وألفاظ وصيغ، وهذه الروح هي أساس المعتقدات الدينية. والمنطق الديني برأيه مُشَبَّع



بالمشاعر وسائر العواطف، والشعبية الكبيرة تنال قوتها منه. وإذا كان الناس لا يبذلون من حياتهم في سبيل المعقولات إلا شيئاً قليلاً فإنهم يبذلونها كلها طوعاً في سبيل خيال ديني يعبدونه. (لوبون، الثورات، ٢٠١٢، ص ٦١) "فليست الروح الدينية الأساس الوحيد للمعتقدات الدينية، فهذه المعتقدات دعائم من العناصر العاطفية أيضاً ومن بين هذه العناصر الخوف والرجاء والاحتياج إلى التفسير على الخصوص". (لوبون، الحقائق، ٢٠٢٠، ص ٢٥)

لذا، فإن مفهوم الدين، كما يراه لوبون، لا يفترض بالضرورة وجود كيان لاهوتي متعالٍ^(٥)، والاعتقاد بالإلهة ليس نتيجة لخوف، بل نتيجة أمل، ومن ثم يصبح تأثيرها أدياً، وأن الإلهة ليست خالدة لكن جوهر الدين أبدي، فيتحول هذا الجوهر إلى جوهر باهت لمدة من الوقت، ثم يستيقظ مرة أخرى بمجرد اختراع كيان مقدس جديد. (القرة غولي، وآخر، ٢٠٢٤، ص ٢٠٤) ولا غرابة أن يصف لوبون الفئات البشرية كلهم بأنهم كانوا علماء نفس على غير وعي منهم، وكانوا يعرفون روح الجماهير بشكل فطري وبالغالب بشكل دقيق وموثوق جداً. (لوبون، ١٩٩١، ص ٤٨) لأن فكرة اللاشعور حاضرة لديه في تفاصيل كتبه وأبحاثه.

هنا "تقوم في المنطق الديني مقام العلة الطبيعية -التي سلم بها المنطق العقلي- عزائم موجودات أو قوى علوية تجب خشيتها ومداراتها لأنها ذات أهواء وتأثير في جميع أفعالنا، وتشاهد قوة المنطق عند أولي الأنفس التي أصيب في تسميتها النفوس الدينية، فالنفسية الدينية تتجلى في الشخص بإسناده قدرة سحرية لا تأثير للعقل فيها إلى موجود". (لوبون، الآراء، ٢٠١٢، ص ٧٦) فالمنطق الديني منطق إنساني، وإذا ما نظرنا إلى المنطق الديني من خلال جميع عناصر الحياة الاجتماعية، فإننا نراه ذا تأثير في الفنون والآداب والسياسة وصناعة الشفاء، فما الدور الروائي إلا أحد مظاهره، وليس عند أرباب الفن سوى عقائد دينية تجعلهم لا يبالون بطرق التحليل العقلي (لوبون، الآراء، ٢٠١٢، ص ٧٧-٧٨) "وبما أن سلطان العقل على المعتقدات الدينية قليل فقد أصبح من اللغو أن نجادل -كما يفعل الناس- فيما للمبادئ الثورية والسياسية من القيمة العقلية". (لوبون، الثورات، ٢٠١٢، ص ٦٣)

^٥ على اعتبار أن الإلهة ليست سوى خلق من خيالنا، وأن الإنسان هو من اخترعها، لكن سرعان ما أصبح خاضعاً لها بعد أن اخترعها لفترة قصيرة. (القرة غولي، وآخر، ٢٠٢٤، ص ٢٠٤).



يقول لوبون: "إن المعتقد قد يكون أحياناً من القوة بحيث لا يقوم في وجهه شيء، وإن المرء الذي استحوذ عليه إيمانه يصبح رسولا مستعدا للتضحية بمنافعه وسعادته وحياته في سبيل نصره ... إن للعقائد الدينية قوة عجيبة في تغلبها على الأفكار وفي أنها لا تتبدل لا بتبدل الزمان ... حقاً إن مصدر المعتقدات سياسية كانت أو دينية- لمُشترك وهي خاضعة لسُنن واحدة، أي أنها لا تتكون بالعقل وكثيراً ما تتكون خلافاً لما يقتضيه العقل". (لوبون، الثورات، ٢٠١٢، ص ٢٧-٢٨)

فعندما يقارن لوبون ما بين الإنسان الهمجي -الذي يصف خُلق التدين هو البقعة التي تتبدت فيها المعتقدات الدينية لديه- والإنسان المتمدن، ينتهي إلى استنتاج مفاده إن الإنسان الأخير ذو معتقدات مشبّع بتأثير التربية من المبدأ القائل بوجود نواميس ضرورية في عالم الطبيعة لا يستطيع أن ينكرها، إلا إنه بصلواته يعتقد التمكن من جعل قوى ما بعد الطبيعة توقف عمل تلك النواميس، فعلى هذا الوجه يجتمع المنطق الديني والمنطق العقلي أحياناً في نفس واحد من غير أن يؤثر أحدهما في الآخر. (لوبون، الآراء، ٢٠١٢ ص ٧٧)

الخاتمة

توصلنا في بحثنا إلى مجموعة من النتائج والاستنتاجات، وعلى النحو الآتي:

١- لم يدرس لوبون الدين بصفته العقائدية المنضوية في إطار الحق أو الباطل، بل كظاهرة اجتماعية ونفسية تعمل كقاسم مشترك جامع مانع في توحيد مشاعر الجماهير وتوجيه سلوكهم.

٢- وفق لوبون، إذا أردنا فهم المجتمعات البشرية، علينا أن نحلل هذه المعتقدات، لا فقط من حيث صحتها أو خطؤها، بل من حيث جذورها النفسية والاجتماعية وكيف تعمل في اللاوعي الجمعي.

٣- الشأن الأول في حياة الأمم لأخلاقها، وليس لنظمها السياسية، ولا للأحوال الخارجية، ولا للمصادفات، من هنا كانت الأخلاق في صدارة تكوين المعتقدات الدينية عند غوستاف لوبون.

٤- لذا، فإن أهم المبادئ التي تؤثر في الحضارة وتوجهها هي المبادئ الدينية، وأعظم حوادث التاريخ نشأت عن المعتقدات الدينية، ومن ثم، فإن الحياة السياسية والتاريخية تحكمها



سيكولوجيا العواطف لا الماديات البحتة. ذلك أن قيمة المعتقدات الدينية عند لوبون لا تقتصر على الحياة الاجتماعية فحسب، بل إن لها تأثير كبير على المبادئ الثورية والسياسية والتاريخية، ما دام سلطان العقل على هذه المعتقدات قليلا.

٥- لاحظنا كيف طور لوبون انثروبولوجيا ثقافية مبنية على تفاوت الأقسام، عكس الانثروبولوجيا الإنسانية التي طورها التحليل النفسي والسيكولوجيا التحليلية. فبخلاف علماء النفس، رأى لوبون أن الأقسام تختلف فيما بينها بالاشعور؛ لأنه الذي اعتمده ثقافي في الغالب، بمعنى أن لكل قوم لاشعور وراثي خاص به. بينما رأى فرويد ويونغ مثلا أن جانبا من اللاشعور الجماعي يرث كل الإنسانية.

٦- بالنسبة للوبون تبدو أكثر المعتقدات مهيمنة على العقل. بل إن إيمان العقل بالمعتقدات لا يستند إلى براهين أو أدلة، فالقوة الاجتماعية للدين لا تتبع من منطق العقلاني، بل من قدرته على مخاطبة اللاشعور الجمعي، وتحويل الأفكار المجردة إلى عواطف قوية.

٧- في تحليلات لوبون لعلاقة المعتقدات بسيكولوجيا الجماهير، نجد أن رؤيته للسلوك الجمعي تنتمي إلى تلك النظريات التي تفسر هذا السلوك على أساس الانتقال السريع للأفكار والخواطر والشعور والمزاج بين أعضاء الجمهور دون أي اعتراض أو تلكؤ من قبلهم. وبذلك تعد آراؤه في السيكولوجيا نظرية في تحليل العواطف أو الانفعال أكثر من كونها تفسيراً عاماً للطبيعة البشرية.

٨- لقد سعى لوبون أن يستوحي من المنطق الديني تفسيراً لكيفية تحويل العواطف بصيغة المعتقد (الإيمان) إلى سلوكيات منظمة ومؤثرة في المجتمع، فالمنطق الديني إطار ناظم للتماسك الاجتماعي، والدين بهذا المعنى يحول المجتمع من مجرد تجمع بشري إلى "أمة" أو "جماعة" تربطها وشائج منطقية تتجاوز المصالح المادية.



قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الكتب العربية والمُعَرَّبَة

١. الشهري، فايز بن علي: غوستاف لويون، المركز الثقافي للكتاب- المغرب، طبعة ١، ٢٠١٩.
٢. لويون، غوستاف: حضارة بابل واشور، ترجمة: محمود خيرت المحامي، دار الرافدين- بيروت، بلا ط، ١٩٤٧.
٣. لويون، غوستاف: في الميزان، ترجمة شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر- بيروت طبعة ١، ١٩٩٠.
٤. لويون، غوستاف: سيكولوجية الجماهير، ترجمة وتقديم: هاشم صالح، دار الساقى-بيروت، طبعة ١، ١٩٩١.
٥. لويون، جوستاف: سر تطور الأمم، ترجمة: أحمد فتحي زغول باشا، ميراث الترجمة: المجلس الأعلى للثقافة-القاهرة، طبعة ١، ٢٠٠٦.
٦. لويون، غوستاف: روح السياسة، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة الهداوي للتعليم والثقافة- مصر، طبعة ١، ٢٠١٢.
٧. لويون، غوستاف: الآراء والمعتقدات، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة الهداوي للتعليم والثقافة- مصر، طبعة ١، ٢٠١٢.
٨. لويون، غوستاف: روح الثورات والثورة الفرنسية، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة الهداوي للتعليم والثقافة- مصر، طبعة ١، ٢٠١٢.
٩. لويون، غوستاف: السنن النفسية لتطور الأمم، ترجمة: أحمد فتحي زغول، مؤسسة الهداوي للتعليم والثقافة- مصر، طبعة ١، ٢٠١٢.
١٠. لويون، غوستاف: روح الاجتماع، ترجمة: أحمد فتحي زغول، مؤسسة الهداوي للتعليم والثقافة- مصر، طبعة ١، ٢٠١٣.
١١. لويون، غوستاف: جوامع الكلم، ترجمة: أحمد فتحي زغول، مؤسسة الهداوي للتعليم والثقافة- مصر، طبعة ١، ٢٠١٤.
١٢. لويون، غوستاف: روح التربية، ترجمة: طه حسين، مؤسسة الهداوي للتعليم والثقافة- مصر، طبعة ١، ٢٠١٤.
١٣. لويون، غوستاف: فلسفة التاريخ، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة الهداوي للتعليم والثقافة- مصر، طبعة ١، ٢٠٢٠.
١٤. لويون، غوستاف: حياة الحفائق، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة الهداوي للتعليم والثقافة- مصر، طبعة ١، ٢٠٢٠.



ثانياً: المعاجم والبحوث

- ١- خليل، خالد عصام: بحث "غوستاف لوبون وسيكولوجية الجماهير في ضوء دراسة فكرية وإسلامية"، مجلة دراسات في العلوم التربوية والإنسانية، العدد (٤)، نيسان ٢٠٢٤.
- ٢- الزبيدي، محمد مرتضى حسين: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد العزيز مطر، مراجعة: عبد الستار أحمد فراج، الجزء الثامن، مطبعة حكومة الكويت - سلسلة التراث العربي، ط ٢، ١٩٩٤.
- ٣- الشيخ، محمد: بحث "في فلسفة الاعتقاد"، مجلة تفاهم، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية-سلطنة عُمان، السنة الخامسة عشر، رئيس التحرير عبد الرحمن السالمي، ٢٠١٧.
- ٤- القرة غولي، فاروق زهير والعزاوي، هبة عادل، بحث: "الدين عند غوستاف لوبون"، مجلة الآداب-جامعة بغداد، ملحق العدد ١٤٩ حزيران، ٢٠٢٤.
- ٥- معلوف، لويس: المنجد الاعدادي، دار المشرق، بيروت-لبنان، ط ٤، ١٩٨٤.

ثالثاً: المقالات

١. الشوا، هنادي: مقال (طبيب بحث في وعي الناس وعلم نفس الجماهير)، مجلة العرب، ١١/٩/٢٠١٤.

List of Sources and References**First: Arabic and translated books**

1. Al-Shahri, Fayz bin Ali: Gustave Le Bon, Cultural Center for Books - Morocco, First Edition, 2019.
2. Le Bon, Gustave: The Civilization of Babylon and Assyria, translated by Mahmoud Khirat Al-Muhami, Al-Rafideen Publishers - Beirut, no edition, 1947.
3. Le Bon, Gustave: In the Balance, translated by Shawqi Abu Khail, Dar Al-Fikr Al-Moasir - Beirut, First Edition, 1990.
4. Le Bon, Gustave: The Psychology of Crowds, translated and introduction by Hashem Saleh, Dar Al-Saqi - Beirut, First Edition, 1991.
5. Le Bon, Gustave: The Secret of the Development of Nations, translated by Ahmed Fathi Zaghoul Pasha, Heritage of Translation: The Supreme Council for Culture - Cairo, First Edition, 2006.
6. Le Bon, Gustave: The Spirit of Politics, translated by Adel Zaïter, Al-Hindawi Foundation for Education and Culture - Egypt, First Edition, 2012.
7. Le Bon, Gustave: The Opinions and Beliefs, translated by Adel Zaïter, Al-Hindawi Foundation for Education and Culture - Egypt, First Edition, 2012.
8. Le Bon, Gustave: The Spirit of Revolutions and the French Revolution, translated by Adel Zaïter, Al-Hindawi Foundation for Education and Culture - Egypt, First Edition, 2012.
9. Le Bon, Gustave: The Psychological Laws of the Development of Nations, translated by Ahmed Fathi Zaghoul, Al-Hindawi Foundation for Education and Culture - Egypt, First Edition, 2012.
10. Le Bon, Gustave: The Spirit of Society, translated by Ahmed Fathi Zaghoul, Al-Hindawi Foundation for Education and Culture - Egypt, First Edition, 2013.



11. Le Bon, Gustave: The Compendium of Words, translated by Ahmed Fathi Zaghloul, Al-Hindawi Foundation for Education and Culture - Egypt, First Edition, 2014.
12. Le Bon, Gustave: The Spirit of Education, translated by Taher Hussein, Al-Hindawi Foundation for Education and Culture - Egypt, First Edition, 2014.
13. Le Bon, Gustave: Philosophy of History, translated by Adel Zaïter, Al-Hindawi Foundation for Education and Culture - Egypt, First Edition, 2020.
14. Le Bon, Gustave: The Life of Truths, translated by Adel Zaïter, Al-Hindawi Foundation for Education and Culture - Egypt, First Edition, 2020.

Second: Dictionaries and Research

1. Khalil, Khalid Essam: Research paper "Gustave Le Bon and the Psychology of Crowds in Light of an Intellectual and Islamic Study," Journal of Studies in Educational and Human Sciences, Issue (4), April 2024.
2. Al-Zubaidi, Muhammad Murtada Hussein: Taj al-Arus min Jawahir al-Qamus, edited by Abdul Aziz Matar, reviewed by Abdul Sattar Ahmed Farraj, Volume 8, Kuwait Government Press - Arab Heritage Series, 2nd edition, 1994.
3. Al-Sheikh, Muhammad: Research paper "On the Philosophy of Belief," Tafahum Journal, Ministry of Endowments and Religious Affairs - Sultanate of Oman, 15th year, Editor-in-Chief Abdul Rahman Al-Salmi, 2017.
4. Al-Qaraghoul, Farouk Zuhair and Al-Azzawi, Hiba Adel, Research paper: "Religion According to Gustave Le Bon," Journal of Arts - University of Baghdad, Supplement to Issue 149, June 2024.
5. Maalouf, Louis: Al-Munjid al-I'dadi, Dar al-Mashriq, Beirut - Lebanon, 4th edition, 1984.

Third: Articles

1. Al-Shawa, Hanadi: Article (A doctor researched people's consciousness and the psychology of crowds), Al-Arab Magazine, 9/11/2014.

JOBS



مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science



Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279

العدد الأربعون
٢٠٢٦ م / ١٤٤٧ هـ



مجلة العلوم الأساسية
للعلوم التربوية والنفسية وطرائق التدريس للعلوم الأساسية